

حيناً والله حيناً آخر مع ان الشاعر لا يذكر أياً منهما عادة . وهو يخاطب الله في معظم قصائده الدينية على شكل محادثة معه ، وهذا يصل أحيانا درجة السخرية المهينة ، إذ يسخر الشاعر من ضعف الله أو يعجب لعدم تحركه ويصل أحيانا الغضب عليه لأنه ينظر نظرة ارتياح الى ضعف الشاعر وهو يتلوى ألماً وشعوراً بالذنب . ويتساءل الشاعر عن قيمة خلاص الانسان اذا ترك هذا الانسان بلا مساعدة .

ليس معنى ذلك ان الشاعر لا يؤمن بحاجته هو شخصياً للخلاص . بل هو ، على العكس ، يشعر نفسه منجراً باستمرار بعيداً عن الله وأنه بحاجة الى يد يسوع لتنتشله . الا أن هذه اليد الممتدة لا يبدو له انها تمتلك القوة أو الإرادة لانتشاله . انه يريد من الله أن يسعى اليه بلا انقطاع وان يحبه بلا فتور . يقول في القصيدة الاولى من مجموعته الشعرية « القصيدة ك » :

أكلما مسر الوحل قدمي / وشلني الا يدين رفعتهما اليك / تسمرت وشللت بديك / وطالبتي بالانباتق بالارتقاء اليك ؟ / أكلما صرخت واستغثت / واكتسبت عكف من حواليك / عطفت لكنا اكنيت / ( يدك اريد بديك ) / بتدلبي حبل الي ؟

وعلى الرغم من حاجته لحبة الله وعونه فانه يبحث عن وقت ومكان يكون فيهما حراً من الله وغير مراقب مراقبة دائبة . وهو يرغب في أن يستطيع اغماض عينيه ليري مشهداً لا يكون الله فيه « منتج الشريط والمخرج والممثل الوحيد » ، على حد قول توفيق . يؤمن الشاعر بأن الله وهو يحتاج أحدهما الآخر وانهما في خطر السقوط عن الحافة . وهو بأن الله ميت في العصر الحديث بل انه ضعيف وغير قادر على الفعل . وهو يعجب كيف واجه المسيح الصلب بشجاعة ويتخلى الآن عن أتباعه . وفي رباعية بعنوان « أربع أغنيات لأحب » يتوسل الى المسيح ان « ينهض ويمزق الاكفان ويلون الوجنتين ويترك ديار الصفيح » ، ويطلب اليه الا يتركه يصبح ذبيحة اذا كان حتماً يريد الرحمة لا الذبيحة . وينتظر مجيء المسيح الذي لا يصل أبداً ويتركه ينتظر :

وعدتنا رجوعاً قريباً كطرفة عين / محملاً لنا بالعطايا . / وامطيت ضاروخاً ويدياً لم يختبر بعد ، / وانطلق ، وانطلقت ، واختنيتما / كان ما كان ما كانا .

\*\*\*

علينا ان نتنظر ؟ / علينا ان نتنظر .

وينتظر الشاعر « في الغرفة المهجورة » ليأتيه « اللهب الموقظ ، وارتجاف الحمامة » ، ينتظر لحظة النشوة الفريدة ليسمع رسول المسيح يقول ان سيده « مغلوب كايانا وفي عوز مثلنا وأسر وصحراء » .

يبدو لتوفيق ان الخلاص مستحيل وهو يعرف انه بحاجة للخلاص . ولكن السماء ، مثل وطن توفيق الضائع فلسطين لا يستطيع العودة اليها طالما هو على ظهر سفينة بلا جواز سفر :

اقتراب ، ولا دخول / وسعي ، ولا وصول : / بدونه لا دخول / ولا تحمله / فلا دخول .

ما هي هذه المرارة التي يعبر عنها الشاعر في قصائده الدينية ؟ هل ملحد ؟ كافر ؟ لو كان كذلك لما اعطى الله أو المسيح معظم نتاجه الشعري . انه المؤمن الذي يشك لأنه يريد لايمانه الا يهتز ، مثل المحب المرتاب لأنه يريد حبيبه أكثر صدقا ، أو مثل مقدم على الانتحار يريد العودة الى الحياة بنهم ولذة . يقول في رسالة الى صديقه جبراً بتاريخ ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٠ (١٢) : « ان من يحمل الصليب ولكن يحب ابا أو أخا أو زوجة أكثر من المسيح فانه لا يحب المسيح . ولا مجال للمساومة » .